

إلياذة الجزائر دراسة تحليلية تاريخية

Lilyad of Algeria historical and Analytical Study

البروفيسور: ناصر الدين إبراهيم أحمد حسين¹ الطالب: بن أيوب حمزة بن حمو^{2*}¹ الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا² الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا

تاريخ إرسال المقال 2022-02-25. تاريخ مراجعة المقال 2022-07-11. تاريخ نشر المقال 2022-07-30

الملخص:

تتناول هذه الدراسة إلياذة الجزائر دراسة تحليلية فنية لصاحبها الشاعر مفدي زكريا، وهي دراسة وصفية تحليلية تاريخية، تلقي الضوء على منظومة شعرية عربية جزائرية تروي تاريخ الجزائر من القرن الثاني قبل الميلاد إلى سبعينيات القرن العشرين، كما تركز على التعريف بهذا الشعر الملحمي وبصاحبه، وإسهاماته الأدبية شعرا ونثرا، ومحاولة تسليط الضوء على القيمة الفنية التي تتميز به الإلياذة من استحضار للرموز الأدبية المختلفة، وحقول معجمية بأبعاد دلالية خاصة، وتصوير فني بلاغي بديع مثلثة جمالية الصور البيانية، إضافة إلى الجانب الموضوعي المتعلق بتاريخ الجزائر.

الكلمات المفتاحية: الإلياذة، الشعر الملحمي، القصص الشعري.

Abstract:

This study deals with the Iliad of Algeria, an artistic analytical study of its author, the poet Mofdi Zakaria, and it is a descriptive, analytical and historical study, which sheds light on an Algerian Arab poetic system that narrates the history of Algeria from the second century BC to the seventies of the twentieth century, as well as focusing on the definition of this epic poetry and its companion, and its literary contributions. Poetry and prose, and an attempt to shed light on the artistic value that characterizes the Iliad from the evoking of different literary symbols, lexical fields with special semantic dimensions, and a wonderful rhetorical artistic depiction represented by the aesthetic of graphic images, in addition to the objective aspect related to the history of Algeria.

* المؤلف المراسل: بن أيوب حمزة بن حمو hamzabenyoub@gmail.com

مقدمة:

يتميز الأدب الجزائري كغيره من الآداب العالمية بشكل عام والأدب العربي خصوصا بخصائص ميزته بين الآداب العالمية، وهي نتيجة حتمية لجملة من المعطيات التاريخية جعلت أدب هذه الحقب يختلف باختلاف المعطيات الجديدة، ففي العصر الحديث شهدت الجزائر الاستعمار الفرنسي في مطلع القرن التاسع عشر تلتها المقاومات الشعبية، وبعدها النضال السياسي والإصلاحي مع مطلع القرن العشرين، ثم ثورة نوفمبر 1954م ، فالاستقلال سنة 1962م ، ومرحلة ما بعد الاستقلال. وكان أدب كل مرحلة يعكس واقعها ويخلد مآسيها ويحيي نضالاتها، وما يميز الأدب الجزائري أيضا انصهار ثلاثة عناصر داخله وهي العربية والأمازيغية والفرنسية، وكان لهذه العناصر الأثر البارز في الساحة الأدبية. وفي دراستنا هذه نحاول تسليط الضوء على ملحمة تاريخية خلدت نضال الشعب الجزائري وهي إلياذة الجزائر لمفدي زكريا، ويمكن أن نتساءل هنا عن هذا المصطلح ومن أين استمد مفدي زكريا؟ وهل إلياذة الجزائر تحوي العناصر الأساسية لفن القصص الشعري؟ وهل ترقى أن تصنف ضمن شعر الملاحم؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات لا بأس أن نُعرف الشعر القصصي أو أدب الملاحم، ثم نقوم بعقد مقارنة بين أدب الملاحم، وإلياذة الجزائر بالاعتماد على المنهج التحليلي والتاريخي.

1- تعريف الملحمة: إن أدب الملاحم يعود أصله إلى اليونان، فيعرف أرسطو الملحمة بكونها "عبارة عن منظومة قصصية طويلة تعالج بطولات قومية، وتتضمن أحداثا يمتزج فيها الخيال بالحقيقة، أما من حيث شخصيات الملحمة فتتميز بقوتها الفائقة سواء من الناحية الفيزيائية أو المعنوية إلى الحد الذي يجعل منهم أبطالاً يتحلون بالمعجزات، قادرين على منازلة الآلهة نفسها، ليس هذا فحسب بل تنعكس في الملحمة حضارة أمتها بما في ذلك حروبها، عاداتها، وتقاليدها ومعتقداتها الخاصة بالقوى الطبيعية، وغير الطبيعية، إضافة إلى المعجزات والخرافات".¹ ومن خلال هذا التعريف يمكن أن نحدد بعض خصائص شعر الملاحم فأرسطو اشترط في هذه القصائد التطرق إلى بطولات قومية أي يتخلى الشاعر عن ذاتيته وينقل هذه البطولات بشكل موضوعي، تتميز بطولها حيث يمكن أن تصل إلى آلاف الأبيات، كما أن أحداثها تكون ممزوجة بالخرافات والخيال في أسلوب أسطوري يروي ذاكرة الشعب بكل تجلياته في السلم والحرب. ويعرف محفوظ كحوال الملحمة بكونها " قصة سردية مطولة مكتوبة بأسلوب راق تحتفي بالمنجزات العظيمة لبطل ما، وتعالج موضوعات تاريخية، وطنية، دينية، أو خرافية".² فهو يعتبر الملحمة قصة شعرية قومية تعالج بطولات تاريخية بأسلوب أدبي راق، ولا يختلف تعريفه كثيرا مع تعريف أرسطو عدا الجانب الأسطوري والخرافي الذي لم يشر إليه تعريف محفوظ كحوال.

¹ أرسطو، فن الشعر، ترجمة: إبراهيم حمادة، (مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، د.ط. د.ت)، ج3، ص60.
² محفوظ كحوال، الأجناس الأدبية، (الجزائر: دار نوميديا للنشر والتوزيع، قسنطينة، د.ط، 2007م)، ص 167.

وعموما فأدب الملاحم يمكن اعتباره من أقدم الفنون الأدبية لأنه ولید كثير من الأحداث التاريخية وجاء أدب الملاحم لتخليد هذه الأحداث فمنها الشفهي والمدون، كما أن للدين دور بارز في هذا الأدب، ويمتاز أسلوبه بالحوار والوصف والإخبار.

هذا بالنسبة لأدب الملاحم عموما فما هي أول ملحمة في تاريخ البشرية؟ وهل عرف العرب فن الملاحم بخصائصها الفنية في تاريخهم الأدبي؟

إن أقدم ملحمة وصلت إلينا متكاملة، وتحتوي على الخصائص الفنية لأدب الملاحم هي "إلياذة" هوميروس، "وملاحم هوميروس هي أقدم ما وصل إلينا من الأدب الإغريقي، بيد أنه من المرجح أن تكون بذور الشعر الملحمي الأصلية قد جاءت من الأناشيد والتراتيل الدينية التي تتغنى بأمجاد الآلهة والتي كانت تنشد وتلقى في المهرجانات العامة".³

فكما أن اليونان هي معقل ومورد الآداب العالمية وهي أصل أغلب الآداب، فهوميروس هو سيد الشعر القصصي الملحمي من خلال الإلياذة والأوديسة، وعلى نهجه نظم فرجيل إنيادته التي تحكي تاريخ روما محاكيا بذلك إلياذة هوميروس... وظهرت بعدهم بعض الملاحم التي تروي تاريخ شعوبها منها ما اشتهر، ومنها ما طوته يد النسيان لبساطتها أو لكونها منقولة مشافهة.

أما بالنسبة للعرب فاختلف النقاد في تصنيف أشعارهم هل ترقى لكونها عمل ملحمي أي تحوي العناصر الفنية لأدب الملاحم، أم هي قصائد تحكي بعض أيام العرب ووصف الطبيعة والإبل وبعض أيامهم...، فلا بأس أن نأخذ موقفين على سبيل المثال لا الحصر، فمن بين النقاد الرافضون لإطلاق مصطلح الملاحم على الإنتاج العربي محمد عبد السلام كفاقي حيث يقول: "إن الناظر لتراث الشعر الجاهلي -كما وصل إلينا- لا يجد في هذا الشعر أدبا ملحميا بالمعنى المعروف لهذا المصطلح".⁴ ونفس الحكم نجده عند مُعرب إلياذة هوميروس سليمان البستاني حيث يقول: "فلا سبيل إذا للزعم بوجود ملاحم لعرب الجاهلية على نحو ما يراد عنه في عرف الإفرنج، ولكن للجاهلين نوعا آخر من الشعر القصصي مما يعز وجوده في سائر اللغات وذلك في الملاحم القصيرة مقولة في حوادث مخصوصة".⁵ وهذا فأدب الملاحم في الغالب يروي قصص الصراع بين حضارتين مختلفتين في كثير من الأمور الثقافية والدينية، العادات والتقاليد، إضافة إلى الاختلاف الجغرافي بينهما.

أما بالنسبة للقائلين بوجود شعر ملحمي في الذاكرة الشعرية العربية فيعللون ذلك بأن المعلقات وأشعار الحروب للشعراء مثل شعر الحروب للمتنبى ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وسيرة عنترة التي ألقت في زمن الفاطميين، ووظف ناظموها الكثير من المبالغات والخوارق،

³ أحمد عثمان، الأدب الإغريقي تراثا إنسانيا وعالميا، (مصر: دار المعارف، ط2، د.ت)، ص21.

⁴ محمد عبد السلام كفاقي، في الأدب المقارن دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي، (مصر: دار النهضة العربية للنشر والتوزيع، ط1، 1971م)، ص267.

⁵ سليمان البستاني، إلياذة هوميروس "معربة نظما"، (لبنان: دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت)، ج1، ص172.

وقصة سيف ذي يزن اليمني، والظاهر بيبرس فهي تحكي بطولاتهم بشيء من المبالغة والمعجزات.⁶

فيرى الكثير أن البيئة الجاهلية كان من الممكن أن تنتج لنا ملاحم رائعة لوجود الكثير من المعطيات التي يمكن لها أن تبرز هذا الفن لكن يرى النقاد بأن المعلقات الجاهلية يمكن تصنيفها بعد أدب الملاحم يقول جورج غريب: "ومما لا ريب فيه أن الجاهلية كانت خير بيئة مهياة لنشوء الملاحم بفضل ما فيها من أحداث وبطولات، وأساطير، وفروسية، وعصبية، ومفاخرات، ومنافرات، وأسواق للشعر والخطب، وحروب وأحاديث وتبجح بالأنساب، ووصف لميادين القتال."⁷

كما أن العصور الأخرى (الإسلامي، الأموي، العباسي، الأندلسي) شاهدة على الكثير من الأحداث والغزوات والفتوحات... ونظم الشعراء قصائد تخلد أمجادهم وتاريخهم لكن أغلبها لم يرق لمستوى الملحمة كفن أدبي بكل عناصره الأدبية رغم توفر بعض الظروف التي من شأنها أن تساهم في رقي هذا الفن في هذه المرحلة خاصة الفتوحات الإسلامية والحروب الكثيرة مع الفرس والروم و"بالرغم من وجود هذه العوامل التي تساعد على نشوء الفن الملحمي عند العرب، أيام الراشدين فإن الملحمة العربية لم تظهر في ذلك العصر."⁸ ونفس الحديث يقال بالنسبة للعصور الأخرى فكل العصور الأدبية التي جاءت بعد الخلافة الرشيدة تزخر بكثير من المعطيات تساعد على إيجاد فن ملحمي ثري فبالنسبة للعهد الأموي مثلا نجد الخلافات والصراعات الحزبية إضافة إلى توسع حركة الفتوحات" وإذا كانت الملاحم في حاجة ماسة إلى العنصر الديني، كي تصطبغ بصبغة القداسة، فإن الإسلام قد لقي في عصر بني أمية، من الرسوخ وامتداد الجذور واكتناف مظاهر الحياة، وانتظامها شيئا كثيرا.⁹ إلا أنه مع هذا لم ينتج لنا هذا العصر ملحمة متكاملة.

ونفس الحديث يقال بالنسبة للعصر العباسي حيث تطور الشعر في هذه الفترة بشكل لافت خاصة مع ازدهار حركة الترجمة وفتح العباسيين على الآخر، خاصة العنصر الفارسي والهندي، وعرف العرب الفلسفة والمنطق نتيجة ترجمة الكتب اليونانية... فكان من الممكن أن ينتج لنا أول ملحمة مكتملة تروي التاريخ العباسي وملاحمه، "فإذا كانت العهود السابقة من تاريخ الحياة الأدبية عند العرب قد اشتملت على عوامل من شأنها أن تسهل ظهور الملحمة، أو أن لاتقف حائلا دون هذا الظهور، فإن العصر العباسي كانت أكثر العهود موافقة لفن الملحمة، وأوفرها عناصر ملحمة صحيحة."¹⁰

⁶ أنظر: محفوظ كحوال، الأجناس الأدبية، ص 174.

⁷ جورج غريب، الشعر الملحمي تاريخه وأعلامه، سلسلة الموسوعة في الأدب العربي، (لبنان: دار الثقافة، بيروت)، ص 9، 10.

⁸ أحمد أبو حافة، فن الشعر الملحمي ومظاهره عند العرب، ص 102، 103.

⁹ المرجع السابق، ص 113.

¹⁰ المرجع نفسه، ص 123.

وفي نهاية القرن التاسع عشر استطاع سليمان البستاني من ترجمة إلياذة هوميروس إلى العربية وأعاد بعثها من جديد وساعده في ذلك إتقانه لكثير من اللغات وتفتحته على ثقافة الآخر فقد "عمد سليمان البستاني إلى ترجمة الإلياذة ونقلها من اليونانية إلى العربية شعرا، في نيف وأحد عشر ألف بيت من الشعر، فكان أن بت في أدبنا أول روح ملحمة بالمعنى الصحيح، وعرف العرب إلى ماهية هذا الفن، وإلى أصوله وأركانه، وأشكاله بما كتبه حول ترجمة الإلياذة، في مقدمة بلغت مئتي صفحة تقريبا."¹¹ فكانت تجربة مهمة ساهمت في التعرف على إلياذة هوميروس والبنية الفنية الحقيقة لأدب الملاحم فقد أثرت هذه الترجمة بشكل كبير على مختلف الفنون الأدبية فوجد الكثير من المبدعين يوظفون الرموز الأسطورية في أشعارهم، كما أن الوضع السياسي لكثير من الدول العربية كان تحت حكم الاستعمار مما جعل البيئة مواتية لمحاكاة هذه الملاحم، والنسج على منوالها والاقتباس من مضامينها "إن تأثير الملاحم واضح في العصر الحديث، فمن المسرحيات والقصص ما تستعير موضوعاتها من ملاحم هوميروس وغيره من الأقدمين، ولكن مؤلفيها يصوغون هذه الموضوعات في قصة أو مسرحية و كلاهما جنس أدبي حي، ثم يتصرفون في القصة حتى تصوير رمزية، وبحيث لا يكون للرمز من معنى سوى أنه قالب إيحائي عام."¹² كما أن الكثير من دول العالم الإسلامي والعربية تعرضت لاستعمار أجنبي تختلف درجة القمع من مستعمر إلى مستعمر، ونتج عن ذلك ردة فعل ما يسمى بالحركات التحررية، فكان الأدب يصور ويعكس تلك الأحداث في أغلب تفاصيلها، فتطور وازدهر أدب الملاحم "لهذا نعتبره شرطا ثابتا من شروط الملاحم، أحداث ثورية كبرى تؤدي إلى قلب في معالم الحياة الاجتماعية والخلقية والسياسية والدينية، وإلى تجديد النفوس وتساميها."¹³ ويعمل الدكتور يحيى الشيخ صالح خلو الأدب العربي لمثل هذه الملاحم لسببين اثنين أحدهما ديني اجتماعي والآخر فني، فالوثنية تقدم للملحمة مادتها الخصبة، وموضوعها الأمثل بما تحفل به من صراع بين الآلهة، وأنصاف الآلهة يشبه صراع البشر، ويمتاز عنه باختراق نواميس الطبيعة وتجاوز المعقول، وإذا كان التوحيد قد منع المسلمين من الاستفادة من الملاحم عندما ترجموا تراث اليونان، فإنه منع حتى عرب الجاهلية من انشاء ما يشبه الملاحم، ذلك أن الجاهليين – مع عبادتهم للأصنام – كانوا يعتقدون بوجود إله واحد يعتبرون أصنامهم مجرد وسائط بينهم وبينه.¹⁴

فمن خلال كل هذه الآراء يمكن أن نتوصل إلى ملاحظة مهمة وهي أنه لا يمكن أن ننكر وجود ملاحم في عصرنا، ولكن هذه الملاحم لا ترقى إلى الملاحم الكلاسيكية بكل خصائصها الفنية، لكنها تبقى ملاحم لها ميزتها الفنية سواء من الجانب الغنائي أو القصصي يقول مترجم إلياذة هوميروس البستاني: "الملاحم الصغيرة المختصة بلغة العرب، ولاسيما ما قيل منها في الجاهلية

¹¹ المرجع نفسه، ص 179.

¹² محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، (مصر: دار نهضة للطبع والنشر والتوزيع، ط3، 1998م)، ص133.

¹³ أحمد أبو حاق، فن الشعر الملحمي ومظاهره عند العرب، ص53، 54.

¹⁴ يحيى الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء، ص205.

كالمعلقات فإنك ترى فيهن من سرد الحوادث، وتفصيل القواعد، وتمثيل المشاهد وبداهة الفكر، ما يعد في أعلى طبقات الشعر القصصي.¹⁵

2- إلياذة الجزائر ودوافع نظمها:

إن ديوان إلياذة الجزائر لمفدي زكرياء يعتبر آخر منتوج شعري له، ويمكن أن نصطلح على هذا العمل "خلاصة الخلاصة" فالشاعر أفنى حياته في كتابة الدواوين الشعرية والقصائد المتنثرة التي تروي عشقه وهيامه بالجزائر، وتصور بطولات الشعب الجزائري في مكافحة الاستعمار الفرنسي... فلا تمر أمامه فرصة إلا وروج للقضية الجزائرية في المؤتمرات، وال النوادي الأدبية، والحزبية، وفي الصحف، وصدق حين قال:

بلادي أحبك فوق الظنون وأشدوا بحبك في كل نادي.
عشقت لأجلك كل جميل وهمت لأجلك في كل وادي.¹⁶

فجاءت إلياذة الجزائر جامعة لهذه الأعمال معلنة عن ميلاد ملحمة جديدة تضاف إلى قاموس الملاحم العالمية، محاكيا بذلك أعمال كبار الأدباء كهوميروس وفرجيل، وقبل التعريف بهذه الإلياذة لا بأس أن نشير لمناسبة إصدار هذا المنتج الأدبي.

يعود فضل فكرة كتابة الإلياذة إلى السيد مولود بلقاسم نايت بلقاسم صديق الشاعر مفدي زكرياء، والذي كان مشرفا على مؤتمرات الفكر الإسلامي المقامة في الجزائر، فاقترح على الشاعر مفدي زكرياء كتابة ملحمة متكاملة تروي التاريخ الجزائري يقول كريم بلقاسم: "ولهذا طلبنا من المناضل الكبير، والشاعر الملهم، شاعر الكفاح الثوري السياسي، وشاعر الكفاح المسلح الأستاذ مفدي زكرياء... أن يضع لنا نشيدا جديدا يجمع هذه الأناشيد كلها، ويشمل فيه وبه تاريخ الجزائر من أقدم عصورها حتى اليوم مركزا على مقاومتنا لمختلف الاحتلالات الأجنبية، وعلى العهود الحضارية المتعاقبة، وحاضرنا ومستقبلنا في كفاحنا لاستعادة جميع ثرواتنا، ومقومات شخصيتنا وحصانتنا، وبناء مجد جديد لأمتنا، وهذا ما فعله مفدي، وسميناه نشيد الأناشيد، أو إلياذة الجزائر".¹⁷ وربما وقع اختيار كريم بلقاسم على مفدي لاتصافه بخصال تميز بها عن غيره وتتمثل في: الشاعرية والتجربة والثقافة والبعد الديني "إن هذه العوامل مجتمعة، هي التي مكنت مفدي زكرياء-رحمه الله، من أن يطلع العالم بهذا العمل الرائع، الذي ترصد فيه أمجاد السيف، وأمجاد القلم، منذ القديم البعيد، ثم ينظمها في عقد فريد، أو نشيد الأناشيد، لينفخ من خلاله التاريخ في نفوس الأجيال، فتزداد اعتزازا وحماسة وتطلعا، ويصل المشاعر فتزداد تماسكا ورسوخا وقوة".¹⁸

فكانت استجابة مفدي لطلب صديقه كريم بلقاسم بالإيجاب، وبدأ في نظم الإلياذة بداية سنة 1972م، وكان سنده ومرجعه كل من كريم بلقاسم وعثمان الكعاك؛ خاصة لما يلتبس على مفدي

¹⁵ سليمان البستاني، إلياذة هوميروس معربة نظما، ج1، ص 173.

¹⁶ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 57.

¹⁷ المرجع السابق، ص 15، 16.

¹⁸ المرجع السابق، ص 23.

حدث تاريخي يقول كريم بلقاسم: "قد تحمس مفدي لفكرة نظم هذه الإلياذة بمجرد أن تلقى رسالتي في بداية 1329هـ-1972م، وعبر عن استعداده المطلق لتنفيذها وتعاوننا نحن الثلاثة: المرحومين مفدي زكرياء، عثمان الكعاك، وكاتب هذه السطور في وضع المقاطع التاريخية فكنا ننتهاتف ليلا، وكانت البادرة في هذا الهاتف الليلي تعود غالبا إلى مفدي، الذي كان ينظم الإلياذة ليلا، وعندما يتوقف عند نقطة تاريخية ما، ويود التأكد والاطمئنان، يهتف من الرباط إلي في الجزائر وعثمان الكعاك في تونس".¹⁹ هكذا كان مفدي شديد التدقيق والتمحيص، وعمل على أن تكون إلياذته خالية من الشوائب التاريخية ولا يعتري محتواها لبس، هذا ومن باب الأخذ بالأحوط كان يقوم بمراسلات للاستفسار عن كل نقطة، أو إرسال بعض المقاطع للمراجعة "هذا فضلا عن المراسلات المستمرة، التي كنت أقترح فيها عليه بعض النقاط وأعرضها عليه لإدراجها في الإلياذة، والتي كان يرسل إلي في ثنائياها بالمقاطع أولا بأول، لأدفع بها إلى الخطاط الأستاذ عبد المجيد غالب الذي ينقلها بخطه الجميل الرائع".²⁰

بهذه المراحل مرت إلياذة الجزائر لتصل لملتقى الفكر الإسلامي السادس المنعقد في نادي الصنوبر بالجزائر وأنشد مفدي ستمائة وعشرة بيت بصوته، ونبراته، وعبراته، وصرخاته، وإشارات، وسخرياته، وصيحاته، وغضباته، وتعجباته، وكان ذلك يوم 13 جمادى الثانية 1392هـ الموافق لـ: 24 يوليو 1972م أمام أكثر من ألف طالب وأستاذ جامعي من القارات الخمس.²¹ بعد ذلك واصل نظم ما تبقى من الإلياذة لتصل 1001 ألف بيت وبيت، لكن هذا الإنتاج-بعد الستمائة والعشرة أبيات- لم ينشده بصوته الخالد، وتمت طباعة الإلياذة كاملة في الجزء الأول من كتاب الملتقى السادس للفكر الإسلامي، وطبعت ترجمتها أيضا إلى الفرنسية التي لا تكاد تقل في روعتها وجمالها عن الأصل ترجمها الأستاذ الطاهر بوشوشي.²²

وما يميز مفدي زكرياء هو اختياره لعناوين قصائده التي تتسم بالتكاثف الدلالي "وعناوين مفدي زكرياء على وجه الخصوص، تمتلك خصائص فنية متميزة، اقتضاها سياق الموقف الملحمي الذي يتميز به شعره". فعلى سبيل المثال نجد اللهب المقدس، من وحي الأطلس، إلياذة الجزائر... "فالعنوان باختصار هو خلاصة النص والحقيقة أننا إذا اقتربنا من المادة الشعرية لمفدي زكرياء سنجد أول واجهة يرتسم فيها الموقف الملحمي هي واجهة العنونة الشعرية التي انتقاها وارتضاها الشاعر وسما وتسمية لخطابه الشعري قبل الثورة وأثناءها وبعدها"²³ وهذا ما نجده في عنوانه إلياذة الجزائر الذي يحمل دلالات تحيلنا إلى المراحل التاريخية للجزائر وأبطالها ومعجزات ثورتها..

3-أقسام إلياذة الجزائر:

¹⁹ المرجع السابق، ص25.

²⁰ المرجع السابق، ص26.

²¹ أنظر: المرجع السابق.

²² أنظر: المرجع السابق، ص27.

²³ عثمان بدري، دراسات تطبيقية في الشعر العربي نحو تأصيل منهج في النقد التطبيقي، ص122.

قسم مفدي زكرياء إلياذة الجزائر إلى ثلاث أقسام وهي:

3-1- قسم الجمال: ويبدأ هذا القسم من المقطع الأول إلى المقطع العشرين يجوب فيها الشاعر عبر ربوع الجزائر؛ واصفا جميل الصنع الإلهي فيها، منتقلا بين ولاياتها، وما تمتاز به كل منطقة عن غيرها من المناطق الأخرى جغرافيا وجماليا، مطلعها:

جزائر يا مطلع المعجزات ويا حجة الله في الكائنات
ويا بسملة الرب في أرضه ويا وجهه الضاحك القسمات.²⁴

ففي المقاطع الخمسة الأولى تغزل مفدي بجمال الجزائر بشكل عام، واصفا إياها بالمهمة، والجنة، والحكاية... وغيرها من الأوصاف، ولعل هذه الطريقة في كتابة القصيدة تذكرنا بالمقدمة الغزلية، والطللية في الشعر الجاهلي، والتي تكون بمثابة حافز للإبداع الفني، فمفدي زكريا بحسه المرهف شديد الارتباط بالجزائر، كما أن إلياذة الجزائر ألفها لما كان مغتربا بالمغرب مما زاد لهيب الشوق في نفسه، يقول في المقطوعة الافتتاحية:

جزائر يــال حكاية حبي ويا من حملت السلام لقلبي
ويا من سكبت الجمال بروحي ويا من أشعت الضياء بدربي
فلولا جمــالك ما صح ديني وما أن عرفت الطريق
لربي.²⁵

كما أن إلياذة الجزائر تمتاز بلزمة من أول مقطوعة إلى آخر مقطوعة وهي:

شغلنا الوري وملأنا الدنيا
بشعر نرتله كالصلاة
تسابيحه من حنايا الجزائر²⁶

وتتخلل هذه اللزمة كل المقطوعات؛ حيث يفتخر فيها الشاعر بشعره الذي شغل به الناس، وملأ به الدنيا حتى صار يرتل مثل الكتب المقدسة، تسابيحه بطولات الشعب الجزائري.

3-2- قسم الجلال: يتحدث فيه مفدي عن تاريخ الجزائر، وبطولات شعبها قبل التاريخ إلى سبعينيات القرن العشرين، ويمكن أن يُقسم إلى ثلاث أقسام:

3-2-1- تاريخ الجزائر القديم: يروي فيه الشاعر أقدم الأحداث من عهد "ماسينيسا"²⁷، و"يوغرطة"، و"تكفريناس"... وكيف استطاع النوميديون الاستماتة أمام أعتى قوة في تلك الفترة وهم الفينيقيون، والرومان، والوندال، والبنزطيين

²⁴ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 39.

²⁵ لمرجع نفسه، ص 41

²⁶ المرجع نفسه، ص 39.

²⁷ ماسينيسا: ابن غادا الملك الأمازيغي ولد سنة 238 قبل المسيح حينما كانت الحروب البونيقية على قدم وساق وكان الملك الأمازيغي صفاقص مواليا للرومانيين، فنهض ماسينيسا يحارب الرومانيين وصفاقص معا، وكان مصدر إلهام ماسينيسا تزوجه بالعالمة الموسيقارة والفيلسوفة والمؤرخة القرطاجية القسيصة سوفونيزيا. إلياذة الجزائر، ص 59.

مشيدا بالشخصيات التي ساهمت في صناعة هذا التاريخ الزاهر علميا وعسكريا
وحضاريا من أمثال زوجة "ماسينيسا" "سوفينيزيا" الفيلسوفة العالمة والموسيقارة
المشهورة:

دعوا ماسينيسا يردد صـدانا ذروه يخـلد زكـي
دـمـانا

وخلـو سفاكس يحكي لروما مدى الدهر كيف كسبنا الرهانا
وكـم ساومـوه فتار إباء وأقسم أن لا يعيش
جـبـانا

ومن صنعت روحه سوفينيزيا جدير بأن يتحدى
الزمـانا²⁸

وفي استنطاقه للتاريخ يتحدث عن شخصية لا تقل أهمية عن ماسينيسا وتكفريناس وهو القائد
فراكسن الذي لقن القائد الروماني بربروس دروسا في الحروب خاصة المعارك التي خاضها في
جبال جرجرة، وقُتل صديق فراكسن في إحدى المعارك بمنطقة الكاف ويدعى أراديون فيقول:

سلو بربروس يجبكم فراكسن من جرجرا كيف أجـلى الغيوم
وقالوا أراديون بالكاف أودى هل الموت عيسى؟ يداوي الكلوم

فكانت معركة الفكر لا تقل شئنا عن معركة السلاح في منطق مفدي فنجدته يركز كثيرا في هذا
المقطع على شخصية أوغستنس باعتباره عالما وفيلسوبا ومتمكن من اللغتين اللاتينية واليونانية،
كما درس النصرانية أيضاً، وله مؤلف مشهور يسمى الاعترافات يهتم فيه ببعض النظريات
التربوية والأخلاقية التي سادت في عصره.

وهـذا أغوستنس بالاعتر وأفسف بونة أصبح قـد
افات حير - عبر الزمان - الفهُوما
يس قرطـاج مذ بت فيها العُلوم
وكان أغوستنس فخر البلاد وكـان بها الفيلسوف العظيما

وبعد أوغستنس يتحدث عن يوبا الثاني ولي عرش الأمازيغ بشرشال التي كانت تسمى يومئذ
قيصرية كان سياسيا ماهرا، وعسكريا مظفرا، زين شرشال بالمعالم الفاخرة والقصور والمعابد
والمسارح وأسس بها جامعة كبرى للفنون والعلوم والآداب وجلب إليها كبار الأساتذة من اليونان.
وفي نفس المقطع تطرق إلى أبولوس وهو عالم في الطب والحقوق، وامتاز بمخبر للتجارب
والتركيب والتشريح، كما كان أديبا فألف كتاب "التحولات" و"تقلبات الحمار" "والزهريات"،
وكان قاضيا يُستدعى إلى روما للمرافعات في القضايا الكبرى ثم أصبح بها قاضيا.²⁹

أشرشال! هلاً تذكرت يوبا؟ ومن لقبوا عرشك القيصرية؟
لمـا إذا يلقب يوبا بـثان؟ أما حقق السبق في المدنيه؟

²⁸ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 59.

²⁹ المرجع السابق، ص 61.

أما شـاد يوبا بشر شال للعلم أول جـامعة أثرية؟

وهذا أبولوس كان طبيبا

وكان أبولوس قاضي روما ليمناه ترفع ك_____ل قضية³⁰

وبعد الحديث عن هذه الفترة المهمة من تاريخ الجزائر بكل ما حملته من أحداث وتدافع بين الأمم كل حسب مساهمته في بناء هذه الحضارة ، يعرج بنا إلى مرحلة لا تقل أهمية من سابقتها؛ وهي مرحلة الفتح الإسلامي.

3-2-2- مرحلة الفتح الإسلامي: قام العرب بالفتح الإسلامي في الجزائر سنة 643م؛ وافتتحت في عهد يزيد بن معاوية حيث نصب عقبة بن نافع واليا على إفريقية سنة 662هـ/681م، فبعد تأهيله للقيروان بدأ حملته الشهيرة فاتحا وغازيا للأمازيغ لكن وجدوا مقاومة شرسة منهم،³¹ فبعد هذا التاريخ الحافل مع الغزاة، اعتبر الأمازيغ كل دخيل أجنبي على أرضهم غازياً، لهذا كان فتح الجزائر مستعصياً على الفاتحين، واستطاع عقبة بن نافع أن يفتح الجزائر وتيسر له أسر كسيلة بن لزم القائد الأمازيغي الفد ؛ لكن بعد الفتح الإسلامي استطاع الإسلام أن يوحد الصفوف، ويجمع الشمل، وانتشرت الأخوة بين الأمازيغ والعرب.

وهبنا العروبة جنسا ودينا وإنا بما قدود وهبنا رضىنا

إِذَا كَانَ هَذَا يُوَحِّدُ صَفَا وَيَجْمَعُ شَمْلًا رَفَعْنَا الْجَبِينَ

فأهـ_____لا وسهلا بأبناء عم
نزلتم ج_____زائرنا

فاتحنا 32

وتتميز عقبة بن نافع بذكائه الحربي استلهم منه الفاطميون في رحلتهم إلى مصر، فكانت إفريقيا السوداء مشهورة بالذهب والفضة، فكان يبادلهم ملح فزان بالذهب والفضة توفر له تمويل حملته خاصة وأن المال هو عصب الحرب.³³

ومر حلى لعقبة فى أرضنا ينير الحجى ويشيع اليقينا

ويعلي الصوامع في القيروا ن ويرفعها للفاع حصونا

بيت المراحل في كل فج

ووبادلتہ السمر تبـرا بملح وما كان فزان عنه ضنينا

وما كان جوهر إلا مدينا لعقبة يوم استقل السفينا³⁴

ثم إن مفدي لم ينكر نسبه الأمازيغي ويفتخر بأبائه ماسينيسا ويوغرطة ونكفريناس وغيرهم رغم اختلافه معهم في التوجه الديني، ويرى أن البشرية كلها تجتمع تحت ظلال الإنسانية مستشهدا بقوله تعالى: " فجعله نسبا وصهرا".³⁵

³⁰ المرجع نفسه، ص 61.

³¹ مبارك محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ج2، 1989م)، ص25.

³² مفدي زكرياء، إلیاذة الجزائر، ص 63.

³³ المرجع نفسه، ص 63.

³⁴ المرجع نفسه، ص 63.

³⁵ القرآن الكريم، سورة الفرقان، الآية 54.

أولئك آبائنا منذ عيسى
وكم أن محمدٌ صهرًا لعيسى
... ولم نك نكر آباءنا
أكانوا نصارى أكانوا مجوسا
وهل كان بربرٍ إلا شقيقا
لجرهم؟ هلّا نسينا الدروسا؟

2-3- الدويلات المستقلة في الجزائر:

2-3-1- الدولة الرستمية (776م-909م): أسسها عبد الرحمان بن رستم التيهرتي ذو الأصول الفارسية سنة 776م، وكان مركزها تيهرت تيارت حاليا امتدت من..... وتعتبر أول دولة إسلامية مستقلة بقيادة بربرية " هكذا تأسست دولة الرستميين: إسلامية في قضائها، عربية في معارفها، بربرية في عصبيتها، وفارسية في إدارتها وما جمع بين هذه الأجناس غير الرابطة الدينية".³⁶

وہال ابن رستم أن لانسود ونبني كي _____ انا انا مستقلا
فقام بتيهرت يعلى اللوا ء ویرسی نظاما، وینشر فضلا³⁷

2-3-2- دولة الأغلبية (800م- 909م): الدولة الأغلبية مرتبطة بالدولة العباسية إسمًا ومستقلة منها فعلا، فاستفادوا من العباسيين فوائد علمية وسياسية وإدارية وكان مؤسسها إبراهيم بن الأغلب، وتتنحصر رقعتها الجغرافية بين منطقة الزاب ومجانة وبادس والغدير وسطيف أي المناطق الشرقية للجزائر.³⁸

وإن تسألوا عن بني الأغلب سلو الزاب عن جاره الأقرب³⁹

2-3-3- الدولة الفاطمية: تأسست الدولة الفاطمية على يد عبيد الله المهدي سنة 909م، واتخذت من المهدية عاصمة لها، ولما فتح المعز لدين الله مصر بادر بالانتقال إليها. وأسس القاهرة وبنى جامع الأزهر ، وكان لجوهر الصقلي دور بارز في هذه الفتوحات.⁴⁰

وفي قدس جناتنا الناضرة وجـوه إلى ربها ناظرة

تُمَدُّ المعز للدين الإله فيصنع جوهر والقاهرة⁴¹

2-3-4- الدولة الزيرية: وينتسب الزيريون إلى قبيلة صنهاجة من البربر وامتد حكمهم من 946م إلى 1148م وتسمى بالدولة الزيرية نسبة إلى مؤسسها زيري بن مناد.⁴²

بولوغين يامن صنعت البقا سنحفظ عهدك والموثقا

فيرموس أم أنت من شادها فحيرت المغرب والمشرقاً⁴³

2-3-5- الدولة الحمادية (1014م -1153م):

³⁶ مبارك بن محمد الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص 65.

³⁷ مفدي زكرياء، المرجع السابق، ص 64.

³⁸ مبارك بن محمد الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص126.

³⁹ مفدى زكرياء، *إلياذة الجزائر*، ص 65.

⁴⁰ مبارك بن محمد المليي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص 139.

⁴¹ مفدى زكرياء، *إلياذة الجزائر*، ص 66.

⁴² مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، ص136.

⁴³ مفدى زكرياء، *إلياذة الجزائر*، ص 67.

تنسب الدولة الحمادية لمؤسسها حماد بن بلكين الذي يعود نسبه إلى زيري بن مناد بن منقوش بن صنهاج الأصغر، وهو ينحدر من قبيلة صنهاجة التي كانت على حد قول ابن خلدون " من القبائل البربرية الأوفر عددا حتى زعم أنها تمثل الثلث من أمم البربر".⁴⁴

سلّ ابن علناس عن ذكرنا _____ وقلة حمّاد عن مجدنا _____

يجبك ابن حمديس في الخالد _____ ين، ويصنع قوافيه، من وحيننا _____
وتنبئك عائشة كيف كانت _____ ترق وتقسو _____ على بعضنا⁴⁵

2-3-6- الدولة الموحدية (1130م – 1269م): يعود تأسيس دولة الموحدين إلى محمد بن تومرت ، وكان تحت امرته عبد المؤمن بن علي الندرومي الذي تسلم زمام المغربين الأوسط والأدنى ووحد بين تونس والمغرب والجزائر، ودخلت في طاعته الأندلس، وكانت مملكته تنتهي شرقا إلى غربي طرابلس، وغربا إلى المحيط الأطلسي، وجنوبا إلى الصحراء.⁴⁶

وينبض قلب بأرض الجزا _____، تمسك تونس منه الوتين _____

وتنصب أندلس عنـدنا _____ وترتاح للعرب النـازحين⁴⁷

2-3-7- الدولة الحفصية (1229م – 1536م): ربما أشار إليها مفدي زكرياء إشارة خفيفة تتمثل في الصراع الذي كان بين الحفصيين والدولة الزيانية، وتنسب هذه الدولة إلى أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني أحد العشرة من أصحاب ابن تومرت، وكانت حدود امتدادها في الجزائر من عمالتا قسنطينة والجزائر إلى ما بعد مليانة شمالا غربيا، ومابعد ورقلة جنوبا غربيا⁴⁸

وأصلى بني حفص حرباً عواناً _____ وما استطاع بابن مرين اعترافاً⁴⁹

2-3-8- الدولة المرينية (1229م – 1393م):

يرجع ظهور الدولة المرينية إلى الضعف الذي عرفه المغرب الأقصى خاصة بعد معركة العقاب سنة 609هـ، فضعت وتفتت الدولة الموحدية، هذا بالإضافة إلى تفشي وباء الطاعون وهلاك الجند، فغاب الأمن في البلاد فظهر بنو مرين على مسرح الأحداث السياسية، واستطاعوا إلحاق الهزيمة بالجيش الموحي الذي أعده والي فاس لحربهم في أول صدام لهم مع الموحدين، واتخذوا فاس عاصمة لهم.⁵⁰

2-3-9- الدولة الزيانية (1235م – 1554م): احتلّ المغرب الأوسط في فترة الزيانيين مركزا مهما، واستطاعت الدولة الزيانية أن تجد لنفسها مكانة مرموقة بين الدول التي تعاقبت على حكم المغرب بشكل عام، وكانت تلمسان عاصمة الدولة الزيانية ومركز حضارتها فقد ازدهرت علميا واقتصاديا وعمرانيا، كما أنها استطاعت التغلب على فترات الضعف والهيمنة الأجنبية التي

⁴⁴ عبد الرحمن ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ص 201.

⁴⁵ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 69.

⁴⁶ مبارك محمد المبلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص 303، 304.

⁴⁷ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 70.

⁴⁸ مبارك محمد المبلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص 382، 392.

⁴⁹ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 71.

⁵⁰ الناصري أحمد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، (المغرب: دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م، ج2)، ص 226، 227.

تعرضت لها من جارتيتها الحفصية شرقاً، والمرينية غرباً، ومؤسسها الأول هو يغمراسن بن زيان وسماها دولة بني عبد الواد نسبة إلى أسلافه وأجداده.⁵¹

تلمسان مَهْمَا أَطْلَأْنَا الطَوائِفَ ————— إليك تلمسان ننهى المطافَ
يغمراسن الشهم ضاق اصطباراً ————— وغالب خمسين عاما عجافاً
فأكرم بمشوارها الوطني ————— وزيراً يحسم فيه
الخلاف⁵²

2-4- العصر الحديث:

بعد سرد الشاعر لأهم الدويلات الإسلامية في المغرب العربي بشكل عام، وفي الجزائر بشكل خاص بكل ما حوته من أحداث، وشخص، ينتقل بنا إلى مرحلة لا تقل أهمية عن هذه المراحل، وهي مرحلة الحملات الصليبية في شمال إفريقيا، والتي كانت تتعرض لها الجزائر من قبل القراصنة الإسبانيين واستنجد بالأتراك العثمانيين

2-4-1- الاستعمار الإسباني: بعد سقوط الأندلس سنة 1492م، لم يكتف الإسمان بهذا النصر بل لاحقوا العرب إلى شمال إفريقيا من أجل تشتيت صفوفهم وعدم التفكير بالعودة إلى إسبانيا، وباركت هذا المسعى الكنيسة فقامت بتمويل الحملات الصليبية نحو شمال إفريقيا فهاجم الإسمان المرسى الكبير سنة 1505م، وحاصروا مدينة وهران في نفس السنة، وتمكنوا منها في 16 أيار من سنة 1509م بعد الخيانة التي تعرضت لها من قبل يهودي يدعى "ستورا" ورجلين من المسلمين أدخلوا بعض الإسمان إلى المدينة فتولوا فتحها في وجه إخوانهم.⁵³

وأوغر قلبُ الصليبِ الحقود ————— علاننا، وأمعن فينا الحسود
وطافت بوهران جيطان غدرًا ————— وزيان ما استطاع حشد الجنود⁵⁴

2-4-2- الدخول التركي بالجزائر: بعد الهزائم التي لحقت بالأساطيل الجزائرية في المرسى الكبير وبجاية من طرف الإسمان، استعان سلطان الجزائر سليم تومي بالأتراك بحكم الرابطة الدينية التي تربطهم بهم، فاستجاب العثمانيون لطلب النجدة الجزائرية فأرسلوا له القاندين البحريين المشهورين الأخوين خير الدين وعروج بربروس.....⁵⁵ وتمكنوا من طرد الإسمان من الجزائر العاصمة 1519م وبعض المقاطعات خاصة بعد الإمداد الذي منحهم إياه السلطان سليمان العثماني.

2-5- العصر المعاصر:

2-5-1- الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830م – 1962م):

⁵¹ مبارك بن محمد المبلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، ص 439.

⁵² مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص71.

⁵³ مبارك بن محمد المبلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، (الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية، ج3، 1964م)، ص25، 26.

⁵⁴ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص72.

⁵⁵ مبارك بن محمد المبلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، ص44.

لقد ركز مفدي زكرياء في إلياذته كثيرا على هذه المرحلة وخصص لها ما يقارب واحد وثلاثون مقطعا بدأها بأسباب الاستعمار ودواعيه، وقد أجمع المؤرخون أن السبب المباشر لاحتلال فرنسا للجزائر هو تراكم الديون عليها بعد أن أغدقت الجزائر عليها من خيراتها خاصة بعد الحصار الذي تعرضت له وكانت الجزائر تقف دائما إلى جانبها في ضل التهديد الأوروبي وشهد شاهد من أهلها وهو المؤرخ قارو (Garrot) حيث يقول: "وبفضل تلك العلاقات مع الجزائر أنقذ فرانسوا الأول عرشه وحفظ شعبه من الخراب".⁵⁶ كما أن العميلين اليهوديين الجسوسين بوشناق وبوخريص كانت لهم سيطرة مطلقة في هذه التجارة وتصدير القمح إلى فرنسا ولعبا دورا كبيرا في تذبذب السياسة الخارجية الجزائرية، وتأرجحها بين عدة أحلاف من غير أن تكون خاضعة لخط سياسي واضح.⁵⁷

وجـــــــــــــــــاعت فرنسا فكنا كراما
فأبظرهم قمحنا الذهبــــــــــــــــي
وكم تبطر الصدقات اللئاما
وباعت فرنسا ضمير اليهود
وما كان بوشناق إلا ابن آوى
وما كان بوخريص إلا طغاماً⁵⁸

وفي 29 أفريل سنة 1827م كان هناك اجتماع بين الداي حسين سلطان الجزائر والقنصل الفرنسي بالجزائر دوفال وسأله الداي حسين عن الديون المتعلقة بالقمح فلم يجب القنصل وطلب منه الخروج مشيرا بمروحة فاعتبرته السلطات الفرنسية نوعا من الإهانة، كما اعتبر الداي حسين هذا الصمت نوعا من الإهانة كذلك، فصارت تسمى بحادثة المروحة، وكانت سبب غير مباشر لاحتلال الجزائر.⁵⁹

ومروحة الداي لم تك إلا
كما يستبيح اللصوص الحراماً⁶⁰
وكان نابليون بونابرت قبل ذلك يحلم أن يكون شمال إفريقيا تابعا لفرنسا يتوسطه البحر الأبيض المتوسط فطلب من وزير البحرية إعادة التفكير في احتلال الجزائر، ووقع الاختيار على ضابط محنك يدعى بوتان (Boutin) واقترح من خلالها أن يكون الإنزال من سيدي فرج ويتم بين شهري ماي وجوان.⁶¹

أبو تان هل سيدي فرج
وإن طال ليل أقر النظام⁶²
واستطاعت القوة الفرنسية احتلال الجزائر وتوقيع معاهدة الاستسلام بين الماريشال دوبرمون (De Bourmont) والداي حسين بتاريخ 5 جويلية 1830م.⁶³ وانطلقت المقاومات بكل أشكالها وتطرق إلى أغلبها مفدي في إلياذته نكتفي بذكرها فقط.

⁵⁶ مولود بلقاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، (الجزائر: دار الأمة، 2007م)، ص 27.

⁵⁷ المرجع السابق، ص 249.

⁵⁸ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 73.

⁵⁹ انظر: جيلالي بشلاغم، العلاقات الجزائرية الفرنسية في ظل سياسة اليمين المتطرف، (الجزائر: رسالة ماجستير في العلوم السياسية تخصص دراسة أورو متوسطية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2010م)، ص 33.

⁶⁰ المرجع نفسه، ص 73.

⁶¹ انظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، (الجزائر: عالم المعرفة، 2009م)، ص 19.

⁶² مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 73.

2-5-2- المقاومة الشعبية للاحتلال الفرنسي:

بعد دخول الفرنسيون إلى الجزائر اتخذت المقاومة الجزائرية شكلين رسمي، وشعبي أما الشعبي فيمثلته الحاج أحمد باي قسنطينة، فالتفت حوله الأمة من الجزائريين وبقايا الأتراك فلم تتمكن القوات الفرنسية بقيادة لاموريسير من قسنطينة إلا سنة 1838م بتخاذل وتسويق بعض الشباب وخدمت مقومته سنة 1848م.⁶⁴

أما المقاومة الشعبية فيمثلها الأمير عبد القادر بعد مبايعته سنة 1832م فاستطاع أن يؤسس بالغرب الجزائري دولة جزائرية إسلامية إمتدت إلى سنة 1847م.⁶⁵

أيّا عبد القادر كنت القديرا وكان النضال طويلا عسيرا ونظمت جيشا وسست بلاداً فكنت الأمير الخبير الخطير⁶⁶

بعدها جاءت ثورة محمد بن عبد الله الملقب بومعزة من 1845م إلى 1847م بالشلف والحصنة والتيطري.⁶⁷ تلتها بعد ذلك مقاومة الزعاطشة من سنة 1848م إلى 1849م بالزعاطشة في بسكرة والأوراس قادها الزعيم الشهيد عبد الرحمن بن زيان.⁶⁸

تلقف رايتك ابن الجزائر وعند ابن زيان ثبلى السرائر

وهب الزعاطشة الثائرو ن فهب لنصرتهم كل ثائر⁶⁹

وفي سنة 1851م إلى 1857م بدأت ثورة القبائل بقيادة لالة فاطمة نسومر، فكانت تسير جيشا يضم سبعة آلاف مجاهد ضد جيش الماريشال راندون (Randon).⁷⁰ وأبلى البلاء الحسن في جبال جرجرة ومنطقة القبائل بشكل عام.

وتذكر ثورتنا العارمة بطولات سيدتي فاطمة

أتنسى الجزائر حواءها؟ وأمجادها لم تزل قائمة⁷¹

بعده جاءت ثورة أولاد سيدي الشيخ من 1864م إلى 1880م بواحة البيض، وجبل عمور، ومنطقة التيطري، وتيارت، وجنوب وهران، وكانت بقيادة سليمان بن حمزة، وأحمد بن حمزة، واستطاعوا القضاء على القائد الفرنسي بوبريتير في إحدى المعارك بالمنطقة.⁷²

بنو سيدي الشيخ قادوا النضالا فهزّت الثرى، وأذابوا الجبالا

سليم ————— ان حمزة آلى يمينا فبر، وأصلى المغير

الوبالا

⁶³ انظر: جيلالي بشلاغم، العلاقات الجزائرية الفرنسية في ظل سياسة اليمين المتطرف، ص34.

⁶⁴ المرجع نفسه، ص36.

⁶⁵ المرجع نفسه، ص36.

⁶⁶ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص75.

⁶⁷ انظر: جيلالي بشلاغم، المرجع نفسه، ص36.

⁶⁸ انظر: جيلالي بشلاغم، المرجع نفسه، ص36.

⁶⁹ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص76.

⁷⁰ جيلالي بشلاغم، المرجع نفسه، ص36.

⁷¹ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص77.

⁷² بشير بلاح وآخرون، تاريخ الجزائر المعاصر، (الجزائر: دار المعرفة، ج1، 2010م)، ص277.

سلوا بوبريت العقيد المسجى وحمزة يغرس في—————ه النبلا⁷³
أما مقاومة الشيخ المقراني فكانت من سنة 1871م إلى سنة 1872م بكل من برج بوعريريج،
مجانة، سطيف، تيزي وزو، صور الغزلان، الحضنة.⁷⁴ بعدها مقاومة الشيخ الحداد، وكانت سنة
1872م بعد إعلانه الحرب على الفرنسيين بسوق صدوق في ولاية بجاية، وكان شيخا كبيرا بلغ
الثمانين من عمره.⁷⁵ وفي سنة 1881م انطلقت مقاومة الشيخ بوعمامة، وشملت كل من عين
الصفراء، وتيارت، وسعيدة، وعين صالح، وانتهت سنة 1908م.⁷⁶
وآخر هذه المقاومات الشعبية كانت مقاومة التوارق والتي بدأت من سنة 1916م إلى 1919م
بتاغيت والهقار، وجانت، وميزاب، ورقلة بقيادة الشيخ أمود.⁷⁷
وهقار تزهو بأمودها يذوذ عن الشرف المستباح⁷⁸

2-3-5- المقاومة السياسية والفكرية:

بعد أن خمدت الثورات الشعبية بسبب اختلال توازن القوى بين المستعمر والجزائريين اتخذت
المقاومة شكلا آخر يغلب عليه الجانب السياسي من خلال مطالبة فرنسا بالمساواة في الحقوق
فظهرت أحزاب عديدة، وشخصيات تبنت هذا الاتجاه.

2-3-5-1 مقاومة الأمير خالد:

ويغدو بفرساي خلف الوعو د يناشد ويلسون فرض المحال
تجاريب خــــالـد مهما تكن فلم نك نغمط حق الرجـال⁷⁹
2-3-5-2 حزب نجم شمال إفريقيا: تأسس هذا الحزب بعد مؤتمر لعمال شمال إفريقيا بفرنسا
يقوده مصالي الحاج في 20 جوان 1926م،⁸⁰ وكان مفدي زكرياء متأثرا بأفكاره، ونجده يؤلف
النشيد الرسمي للحزب "فداء الجزائر روعي ومالي".

فحربُ اليراع أعــــاد الصرا ع يقودُ سراياه "نجم الشمال"
وقال الــــــذي خــــلــــوا شعره فداء الجزائر، روعي ومالي⁸¹
2-3-5-3 جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: تأسست سنة 1931م من طرف الشيخ عبد
الحמיד بن باديس والبشير الإبراهيمي وثلة من العلماء، لها طابع ديني هدفها إصلاح المجتمع
وزرع القيم الإسلامية والمحافظة على الهوية الجزائرية.⁸²

⁷³ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 78.

⁷⁴ جيلالي بشلغم، المرجع السابق، ص 36.

⁷⁵ Rinn Loius; **Histoire De L'insurrection De 1871 En Algérie**; Adoph Jourdan Libraire-
Editur, Alger, 1891, P200

⁷⁶ نبيل شلال علوان، "مراحل ثورة بوعمامة 1881م-1908م"، (مجلة أروك للعلوم الإنسانية، جامعة القادسية، العدد 40، 2017م)،
ص 3، 4.

⁷⁷ جيلالي بشلغم، المرجع السابق، ص 36.

⁷⁸ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 79.

⁷⁹ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 80.

⁸⁰ محمد قنانش، أفاق المسيرة الوطنية وأحداث 8 ماي 1945م، (الجزائر: منشورات دحلب، د.ط، 2009م)، ص 26.

⁸¹ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 81.

⁸² أحمد طالب، محمد البشير الإبراهيمي 1952م-1954م، (لبنان: دار المغرب الإسلامي، ج 4، ط 1، 1997م)، ص 101.

وفي _____ دار جمعية العلماء تغذي العقول بوحى السماء
وتبني المدارس عرض البلاد فيعلي ابن باديس صرح البناء⁸³

2-5-3-4 حزب الشعب: بعد حل حزب نجم شمال إفريقيا بتاريخ 26 جانفي 1937م، ظهر حزب جديد بنفس التوجه وهو حزب الشعب الجزائري الذي ولد يوم 11 مارس 1937م.⁸⁴
2-5-3-5 الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري: تأسس يوم 17 أفريل 1946م بقيادة فرحات عباس⁸⁵، وكانوا في بداية الأمر من دعاة الإدماج لكن سرعان ما عدلوا عن فكرتهم وعادوا إلى جادة الصواب.

2-5-3-6 حركة انتصار الحريات الديمقراطية: نشأت هذه الحركة بعد إطلاق سراح مصالي الحاج من السجن، وبعد أحداث مجازر 8 ماي 1945م، والتي راح ضحيتها أزيد من 45000 شهيد بكل من قالمة وخرطلة وسطيف، وذلك عقب احتفالهم بفوز الحلفاء في الحرب العالمية الثانية مطالبين فرنسا بتحقيق وعدها ومنحهم الاستقلال.⁸⁶

ولم ننس في أربعين وخمس ضحايًا المذابح في يوم نحس
طربنا مع الحلفاء اغترارًا وقمنا نُصَفِّقُ في غير عرس⁸⁷

2-5-4 الثورة التحريرية (1954م-1962م):

بعد أحداث 8 ماي 1945م أدرك الشعب الجزائري أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة فقرر خوض غمار الحرب ضد المستعمر الفرنسي فكان الفاتح من نوفمبر ميلاد حياة جديدة للجزائر ففي هذا اليوم أطلقت أول رصاصة ضد المحتل الغاشم، وشاعرنا أبدع في وصف هذا التاريخ الجلل في الذاكرة الوطنية الجزائرية.

تَــــأَذَّنَ رَبُّكَ لَيْلَةً قَــــدْرٍ وَأَلْقَى الْقِصَاصَ عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ⁸⁸

2-5-4-1 مؤتمر الصومام:

تَبَّارَكَ وَادِيكَ صُومَامُ إِنَّا حَفِظْنَا عُهُودَكَ أَيَّامَ ثُرْنَا
أَصُومَامُ بِاسْمِكَ صَمَّمَ شَعْبٌ سِيَّاسَةً ثَوَّرَتْهُ فَانْطَلَقْنَا
كَأَنَّ لِحَمْسٍ وَخَمْسِينَ نَجْوَى لِسِتٍ وَخَمْسِينَ يَوْمَ اجْتَمَعْنَا⁸⁹

2-5-4-2 أحداث سكيكدة (الشمال القسنطيني):

سُكِّكِدَةُ الثَّــــائِرِينَ أَعْيَدِي عَلَيْنَا فَضَائِحَ بَــــاغِ حَقُودِ
وَخَمْسٌ وَخَمْسُونَ فِي الدِّكْرِيَّاتِ جَلَالُ يُهْذُهُ صَدْرُ الْوُجُودِ⁹⁰

⁸³ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 82.

⁸⁴ قدارة شايب، الحزب الدستوري التونسي الجديد وحزب الشعب الجزائري 1934م-1954م، دراسة مقارنة، (الجزائر: رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة، 2006م)، ص 236، 237.

⁸⁵ محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، (سوريا: إتحاد الكتاب العرب، ج 1، 1999م)، ص 107.

⁸⁶ كريم الطيب، الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري ودوره في الحركة الوطنية 1946م-1956م، (رسالة ماستر، تخصص أدب جزائري، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2015م)، ص 51.

⁸⁷ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 86.

⁸⁸ إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، ص 89.

⁸⁹ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 91.

2-4-5-3 الإضراب العام: وهذا الإضراب نظمته الشعب الجزائري لأسبوع كامل من 24 جانفي إلى 4 فيفري 1957م⁹¹

تَبَارَكَ شَعْبٌ تَحَدَّى الْعِنَادَا فَصَامَ وَأَضْرَبَ، سَبْعًا شَدَادًا
وَأَنْفَ أَنْ يَسْتَسِيغَ الْحَيَاةَ، تُجَرِّعُهُ ذُلًّا وَاضْطِهَادًا
وَأَقْسَمَ أَنْ لَا يَعِيشَ النَّهَارَ عَمِيلاً يُوقِرُ لِلْبُومِ زَادًا⁹²

2-4-5-4 قمع المهاجرين في فرنسا:

فِيَا عَـلَامَ سَيِّئِينَ قُصَّ عَلَيْنَا فَضَائِحَ جَيْشٍ يَذُوبُ غَلِيلًا
سَلِّ السَّيِّئِينَ كَمْ قَذَفُوا مِنْ ضَحَايَا؟ وَكَمْ صَنَعُوا الْمَذْهَلَ الْمُسْتَحْيِلًا⁹³

2-4-5-5 تخليد مشاركة الحيوان في الثورة:

إِذَا الشَّيْعُرُ خَلَدَ أَسَدَ الرَّهْمَانِ أَيْنَسَى مُغَامَرَةَ الْحَيَوَانِ؟
أَيْنَسَى الْبِعَالُ؟ أَيْنَسَى الْحَمِيرَ؟ وَهَلْ بَبْطُولَاتِهَا يَسْتَهْـلِكُهَا؟⁹⁴

2-4-5-6 مفاوضات المستعمر للجزائريين حول الاستقلال: كانت اتفاقيات "إيفيان" مسك الختم لنهاية الحرب في الجزائر وكان ذلك يوم 7 مارس 1962م بإيفان الفرنسية، وتوصل الطرفان إلى اتفاق يسري مفعوله من يوم 19 مارس 1962م⁹⁵. وأشار مفدي مستهترا إلى طلب فرنسا استفتاء الجزائريين حول الاستقلال، كما أشار إلى مقولة ديغول حين زار الجزائر، وشعر بنضج الثورة فقال: "فهمنّا".

وَقَاوَضْنَا الْقَوْمَ فِي أَمْرِنَا وَأَمْرَ سَيِّئَاتِنَا فَرَفَضْنَا
وَقَالُوا سَتُجْرِي عَلَيْهِ اقْتِرَاعَا بِلَا وَنَعْمَ خَدْعَةً فَاعْتَرَضْنَا
فَرُنُسَا تَنَاسَيْتَ مَا لَا يُنْسَى أَمَا فِي نَفْمُرٍ كُنَّا اقْتَرَعْنَا
وَفَكَّرَ دِيغُولُ فِي حُمُقِهِمْ وَفِي صِدْقِنَا ثُمَّ قَالَ فَهَمْنَا⁹⁶

2-4-5-7 الاستقلال: بعد كل هذه التضحيات خلال قرن ونصف تحقق الاستقلال يوم 5 يونيو 1962م.

وَطَالَعْنَا بِالْبَشَائِرِ يُونِيُو فَاَنْعَشَ كَالْعَارِضِ الْمُرْجَحِ
فَقَمْنَا نَشِيدُ اقْتِصَادِ الْبِلَادِ، وَتُعْلِي الْمَصَانِعَ فِيهَا وَتَبْنِي
وَرُحْنَنَا نُوقِرُ لِلْكَادِحِينَ الرَّغِيفَ الشَّرِيفَ بِعِلْمٍ وَفَنٍ⁹⁷
2-6 ما بعد الاستقلال: في هذه المرحلة تخرج الإلياذة عن إطارها الملحمي المتعارف عليه

⁹⁰ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 92.

⁹¹ بن يوسف بن خدة، الجزائر عاصمة المقاومة 1954م-1957م، ترجمة: مسعود الحاج، (الجزائر: دار هومة، 2005م)، ص 45.

⁹² مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 97.

⁹³ المرجع نفسه، ص 99.

⁹⁴ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 101.

⁹⁵ انظر: عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، (لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1997م)، ص 393.

⁹⁶ مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 102.

⁹⁷ المرجع نفسه، ص 107.

في أدب الملاحم -وهذا ما يعاب على إلياذة مفدي- إلى مواضيع شتى تتعلق بالجزائر الجديدة بإيجابياتها وسلبياتها، وسنورد بعض الأمثلة للحديث عنها، استهلها الشاعر بثورة البناء، والتشييد، والدعوة إلى تبني سياسات جديدة لمسايرة الحركة الاقتصادية والزراعية العالمية، ورفع التحدي خاصة بعد خروج المستعمر، ونقص اليد العاملة المؤهلة.

وفي الأرض للزَّارِ عَيْنَ خَبَايَا مُضْمَخَةٌ بِدَمٍ أَيْ الضَّحَايَا
وأبطالنا في صِرَاعِ الْأَرَاضِي كَأَبْطَاطُنَا فِي صِرَاعِ الْمَنَآيَا⁹⁸

كما أشار إلى ضرورة تحقيق الوحدة المغاربية خاصة وأنهم عاشوا نفس الآلام، فلم لا يعيشوا نفس الآمال، ورفض كل الحدود التي سطرها المستعمر من أجل التفريق بين الدول المغاربية.

سَلَامٌ عَلَى الْمَغْرِبِ الْأَكْبَرِ وَعَلَى طَبْعِهِ النَّاصِعِ الْأَطْهَرِ
أُحْيِي الْأُلَى أَزْرُوا حَرْبَنَا إِلَى النَّصْرِ فِي رِيحِهَا الصَّرْصَرِ⁹⁹
وأشار أيضا إلى إشكالية خطيرة تعتبر نتاج المراحل الانتقالية فكل دولة مرّت بهذه الدورة يتوجب عليها الدخول في نفق الصراع على الكرسي، وطموح السيادة والريادة.

وَأَفْلَتَ بَعْضُ زَمَنٍ التَّائِي وَحَمَى الْكَرَاسِي كَأَغْصَارِ جِنِّ
وَحُكْمٌ لِّغَوَامِضِهَا لِلزَّ مَآنٍ فَإِنَّ الزَّمَانَ لَأَفْصَحَ مِثِّي¹⁰⁰
أما القضية التي أغضبت مفدي وجعلته يتأثر ويتحسر هو انحلال الشباب وفساد أخلاقه، فشحاع الشذوذ والتخنث، وتعاطي المسكرات والحشيش، وانتشار اللهو والمجون، كما تطرق إلى مشكل زواج الرجل الجزائري بالأجنبية، والمرأة بالأجنبي؛ حيث كثرت هذه الظاهرة غداة الاستقلال. وتحدث عن خطر الفكر الماركسي الشيوعي وما يحمله من خلفيات تهدم الدين، والشباب، إضافة إلى حديثه عن الخونة أو ما يلقبون بـ"الحركي" وخطرهم داخل المجتمع.

خاتمة:

حاولنا في هذا البحث تسليط الضوء على مدونة مهمة من تاريخ الجزائر، وكيف استطاع الشعب الجزائري الاستماتة أمام أعتى وأقوى الدول الاستعمارية في تلك الحقبة، فإجمالا يمكن القول أن مفدي زكرياء وفق في الجانب الموضوعي للملحمة من خلال تطرقه إلى تاريخ الجزائر، وتتبعه لأغلب الأحداث التاريخية في هذه الفترة بعيدا عن الحكايات الخيالية والأسطورية والتي كانت ركيزة الكثير من الملاحم السابقة كإلياذة هوميروس وشهنامه الفرس.

يقول مفدي زكريا:

وقالوا انحرفت بالإلياذة تلوم الشباب ومثلك
يعلوا هوميروس أرخ ولم ينتق د وشهنامه الفرس بالوصف تغلو

⁹⁸ المرجع نفسه، ص108.

⁹⁹ المرجع نفسه، ص106.

¹⁰⁰ المرجع السابق، ص107.

فقلت: وشعر الخرافات يفنى وشعر البطولات لا يضمحل¹⁰¹

قائمة المصادر والمراجع:

- أحمد عثمان، الأدب الإغريقي تراثا إنسانيا وعالميا، (مصر: دار المعارف، ط2، د.ت).
مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، الجزائر: مؤسسة مفدي زكريا، ط5.
عثمان بدري، دراسات تطبيقية في الشعر العربي نحو تأصيل منهج في النقد التطبيقي.
مبارك محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ج2، 1989م).
عبد الرحمن ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.
الناصري أحمد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، (المغرب: دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م، ج2).
مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، (الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية، ج3، 1964م).
مولود بلقاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، (الجزائر: دار الأمة، 2007م).
جيلالي بشلاغم، العلاقات الجزائرية الفرنسية في ظل سياسة اليمين المتطرف، (الجزائر: رسالة ماجستير في العلوم السياسية تخصص دراسة أورو متوسطية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2010م).
أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، (الجزائر: عالم المعرفة، 2009م).
بشير بلاح وآخرون، تاريخ الجزائر المعاصر، (الجزائر: دار المعرفة، ج1، 2010م).
Rinn Loius; **Histoir De Linsurrection De 1871 En Algérie**; Adoph Jourdan Libraire-Editur ,Alger ,1891 ,P200

¹⁰¹ المرجع نفسه، ص136.

- نبيل شلال علوان، "مراحل ثورة بوعمامة 1881م-1908م"، (مجلة أروك للعلوم الإنسانية، جامعة القادسية، العدد 40، 2017م).
- محمد قنانش، أفاق المسيرة الوطنية وأحداث 8 ماي 1945م، (الجزائر: منشورات دحلب، د.ط، 2009م).
- أحمد طالب، محمد البشير الإبراهيمي 1952م-1954م، (لبنان: دار المغرب الإسلامي، ج4، ط1، 1997م).
- قدادة شايب، الحزب الدستوري التونسي الجديد وحزب الشعب الجزائري 1934م-1954م، دراسة مقارنة، (الجزائر: رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة، 2006م).
- محمد العربي الزبييري، تاريخ الجزائر المعاصر، (سوريا: إتحاد الكتاب العرب، ج1، 1999م).
- كريم الطيب، الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري ودوره في الحركة الوطنية 1946م-1956م، (رسالة ماستر، تخصص أدب جزائري، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2015م).
- بن يوسف بن خدة، الجزائر عاصمة المقاومة 1954م-1957م، ترجمة: مسعود الحاج، (الجزائر: دار هومة، 2005م).
- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، (لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م).